في مجال
البحث الاجرائي

معلمة تكتب تجربتها

كيف أتعامل مع الفروق الفردية ؟

التفكير والتأمل فيما يجري داخل غرفة الصف من أجل تحقيق بعض التقدم يمنح صفة التميز والعمل الواعي من أجل التحسين، لا سيما أن محاولة توفير وضع مثالي داخل غرفة الصف أمرٌ يستحق البحث والتفكير....

عند تأملي لمقطع يومي من حياتي المدرسية كمعلمة تدخل الصف كل يوم، فإنني أرى.... طالبة مستعدة للحصة، وكتبها أمامها، وهي تنتظر بدء الدرس، وأرى أخرى شاردة الذهن لا تريد الانتباه، بيدها ما يشغلها، وثالثة تنظر إلي بعينيها، أما تفكيرها وعقلها فهو في اتجاه آخر...صورة قد تحتملها للحظات أو لحصة، أما أن تكون واقعا موجودا معك دائماً في كل حصة.... فهذا موضوع يستحق التفكير.

من هنا نشأت لدي رغبة في جعل هذه الفئات متباينة المستويات معي داخل الصف جسداً وروحاً، وتفعيل دور كل فئة إلى أقصى درجة ممكنة. إن اضطرار المعلمة للتعامل مع الفروق الفردية بين الطلبة ليس بالأمر اليسير على المعلمة، ولا على الطالبة أيضاً؛ فالطالبة قد تشعر بغربة داخل الصف إذ تجد نفسها مختلفة عن طالبات صفها في المستوى الأكاديمي والميول والاهتمامات والخلفيات الاجتماعية والاقتصادية، فهي لا تفهم ما يدور حولها، لأن مستواها التحصيلي أقل من غيرها، مما يولد لديها شعورا بالخوف من المعلمة، أما بالنسبة للمعلمة، فإنها تبذل جهداً إضافياً عندما تكون نسبة لا بأس بها من طالبات الصف لسن في المستوى الأكاديمي المطلوب، ولا يستطعن القيام بكل المشاريع في 45 دقيقة؛ من شرح أو مناقشة الطلاب أو الاهتمام بالطلاب ذوي المستوى المتدني، الأمر الذي يسبب للمعلمة الإرهاق والقلق، وهذا ما شعرت به؛ فقد شعرت أنني مقصرة في حق هؤلاء الطالبات اللواتي يحتجن اهتماماً أكبر مني، وأنني لا أستطيع أن أوفق بين جميع الأطراف في حصة دراسية واحدة. إن مشكلة الفروق الفردية داخل الصف أمر صحي، ولكن إذا زادت نسبتها، فإنها تصبح مشكلة.

عمد مركز القطان للبحث والتطوير التربوي إلى القيام بعدة أبحاث إجرائية لمواضيع مختلفة، وكنت إحدى المعلمات المشاركات في هذه الأبحاث، حيث عملتُ في بحث إجرائي من النوع التعاوني مع خمسة من الطالبات في كلية الطيرة للعلوم التربوية (تخصص تربية) وفريق من المركز مكون من باحثَين ومعلمة أخرى معي من المدرسة نفسها (مدرسة بدو التابعة لوكالة الغوث). كان الصف الخاضع للبحث عبارة عن شعبتين من الصف الثالث الابتدائي في المدرسة التي أدرس فيها. تم اقتراح موضوع «الفروق الفردية وكيفية التعامل معها» من قبل فريق البحث، ولحسن الحظ كان مطابقاً لما أواجهه في غرفة الصف، وأحاول حله، ربما لأنني معلمة مبتدئة، وليس لدي الخبرة الكافية في مجال التدريس.

بعد إجراء عدة لقاءات مع فريق الباحثين بهدف توضيح مفهوم البحث الإجرائي الذي يستند إلى فكرة المعلمة الباحثة التي تقوم بنفسها في تحديد المشكلة التي هي بصدد حلها، ثم تقترح الحلول التي تستند إلى قواعد تربوية متعددة، وتنفيذها، ثم التأمل فيها لتحليلها لاعتمادها أو اقتراح حلول أخرى، وبهذا تكون المعلمة هي محور العمل والتفكير والتأمل، مما يتيح لها الفرصة لتطوير نفسها مهنياً.

استمرت اللقاءات التحضيرية حوالي شهرين، بعدها بدأ تحضير التخطيط للحصص ضمن المقترح المحدد الذي تم التوصل إليه بعد نقاش، وتبادل للآراء بين الأطراف الثلاثة، حيث تم التوصل إلى استعمال طريقة التعلم التعاوني (التعلم في مجموعات) داخل الصف لتفعيل دور كل الفئات داخل غرفة الصف، ومن ثم تطبيق طريقة حل المشكلات، والاكتشاف، والتعليم في مجموعات متجانسة.

كان العمل تعاونياً بين أفراد الفريق حيث تم تحديد المواد المراد التخطيط لتدريسها في الأسبوع الأول، كما تم تقسيمها على أيام الأسبوع، وقد ساهمت بشكل كبير أنا وزميلتي في اختيار المواد التي سيتم تدريسها خلال الفترة التجريبية بأساليب تعليمية متنوعة، وذلك نظراً لأننا كنا أكثر دراية بالمنهاج، لأننا نحن معلمتا الصف الأصليتان، إلا أن ذلك لم يمنع من تبادل الآراء بين الأطراف الأخرى، وإجراء بعض التعديلات.

أثناء مرحلة التخطيط تمت متابعة كل مذكرة تحضير ومناقشتها بشكل جماعي ودوري عبر عدة لقاءات، وبعد تنفيذ الحصص، لاحظنا أهمية التخطيط الفردي، فالمعلمة التي تريد شرح الدرس من المفضل أن تكون هي القائمة على تخطيطه وتحضيره، حتى تضفي تصورها الشخصي لسير العمل داخل الحصة، وبالتالي كان التخطيط للأسبوعين الثاني والثالث فردياً.

وهنا أريد الحديث عن تجربة العمل التعاوني في البحث، فقد كان لها انعكاسات إيجابية، فعلى صعيد العمل، أتيحت لنا الفرصة لتبادل الخبرات والأفكار، فقد أفدت شخصياً من طالبات الطيرة في كثير من الأفكار والوسائل التعليمية، وأثناء تنفيذ الحصص، وبطبيعة خبرتي العملية البسيطة فإنني قدمت لهن بعض التوجيهات والارشادات، وكذلك فقد أمدنا فريق البحث بكثير من الأفكار، وقدم لنا بعض الوسائل التعليمية غير المتوفرة لدينا، أما على الصعيد الاجتماعي، فقد كان للجو العام الدافئ الذي يخلو من الشعور بالهرمية والطبقية وإملاء القرارات والآراء، والشعور بالراحة والعمل بصورة طوعية كبير الأثر في إنجاح هذه التجربة التي اختلفت عن التجارب السابقة من الناحية التعاونية والمساواة في تبادل الخبرات.

لقد كان هذا قبل مرحلة التنفيذ التي استمرت ثلاثة أسابيع في شهر نيسان 2000، فبعد تحديد المشكلة (مشكلة الفروق الفردية وكيفية التعامل معها) واقتراح حلول لها (استخدام اسلوب التعليم في مجموعات، وأنواع أخرى من التعليم) تم تنفيذ الحصص من قبل المعلمات المتدربات حيث تمت تهيئة الطالبات بهذه الطريقة (المجموعات التعاونية) من خلال إعطائهن فكرة حول طريقة العمل، وتقسيمهن إلى ثماني مجموعات تضم كل مجموعة خمس طالبات من جميع المستويات التحصيلية، كما تم تعليق بعض الإرشادات حول موضوع التعاون على الحائط داخل غرفة الصف مثل «نجاحك كفرد من نجاحك كمجموعة،...».

كان دوري في هذه المرحلة هو مراقبة عمل الطالبات داخل المجموعات ومتابعة عمل المعلمات، وكان ذلك بحضور جميع الحصص والتنقل بين الطالبات أثناء العمل، أو تصوير بعض الحصص بالفيديو، وقمت بتسجيل ملاحظاتي اليومية للتأمل فيها وتحليلها، وإحدى الطرق لذلك كانت كتابة اليوميات، كانت هذه المرحلة الثانية التي تم فيها اقتراح الحلول والتأمل في السلوك مما أتاح لي الفرصة لرصد التغيرات والتأمل بالأمور التي تدور من حولي، حيث شكلت متابعة عمل المعلمات المتدربات فرصة كبيرة لي في خوض التجربة التي أتعرض لها أثناء حضور أحد ما لحصتي، فقد وضعت معايير هذه المتابعة وكيفية التقييم.

اعتمدت في تقييمي للتغيير على مراقبة سلوك الطالبات داخل الصف والمجموعات، ومن خلال مراقبتي، وتسجيل الملاحظات ظهر اختلاف في وقت إنجاز المهمات الموكلة لدى المجموعات؛ فبعضها تنتهي قبل الأخرى، وهنا سألت نفسي.... هل تتعاون المجموعات بدرجات مختلفة، لماذا؟ هل تبلور مفهوم التعاون بين مجموعة بطريقة أفضل من الأخرى أم الانسجام بين الأفراد هو السبب أم هي طبيعة المهمات؟ وبهذه الطريقة كنت أفكر، وأتأمل، وأحاور نفسي، وأضع بعض الحلول بعد تبادل الأفكار مع أعضاء العمل كاختيار مهمات أصعب للطالبات المتفوقات اللواتي ظهر عليهن بعض الاحباط من تلك الطريقة. وبهدف تبادل الأفكار كان هناك لقاءات بين أعضاء العمل في المدرسة أثناء زيارة فريق البحث لنا في المدرسة، أو في المركز خلال فترة التنفيذ لمناقشة العمل وتقييمه، كان لهذا كبير الأثر في تبادل الخبرات، ومحاولة تنفيذ العمل بأفضل صورة ممكنة سواء عن طريق الحوار المشترك أو بحضور بعض الحصص المصورة بالفيديو، وتحليل ما نشاهده ومناقشته ومن ثم تقييم العمل باعتماد الإيجابيات وتفادي السلبيات.

المناقشة والحوار المشترك.... ، اليوميات، أو مشاهدة تسجيل الحصص... جميعها طرق لمتابعة العمل وتقييمه والتحسين فيه؛ بهذه الآلية استمر العمل الذي ركز على التعليم بأسلوب المجموعات، وذلك لشعورنا بأنه كان أفضل طريقة تعالج الوقت، ولكن ذلك لم يمنع من تطبيق أساليب أخرى في بعض المواضيع والحصص بما يتناسب مع طبيعة المادة؛ ففي المجموعات، كانت الطالبة المستعدة للحصة تساعد غيرها في المهمة الموكلة للمجموعة من خلال انتباهها وقدرتها، أما الطالبة شاردة الذهن فقد انجذبت للعمل من أجل إنجاح عمل مجموعتها، لأن نجاح المجموعة متوقف عليها كأحد أفراد المجموعة، وتلك التي كانت تنتظرني لمساعدتها فقد بدأت تلجأ لزميلتها في المجموعة لمساعدتها، وربما كانت تتعلم منها أفضل مما كانت ستتعلمه مني، فأنا لم أكن أعي جيداً أهمية تعليم الأقران، ولكن هذه التجربة جعلتني أكثر انتباهاً لهذا الجانب.

المناقشة والحوار المشترك.... ، اليوميات، أو مشاهدة تسجيل الحصص... جميعها طرق لمتابعة العمل وتقييمه والتحسين فيه؛ بهذه الآلية استمر العمل الذي ركز على التعليم بأسلوب المجموعات

وفي هذا السياق أريد الحديث عن طالبة أثارت انتباهي بشكل خاص، فهي طالبة لم يكن لديها استعداد للحصة قبل بداية التجربة، إلا أن تغيراً ملحوظاً قد طرأ عليها أثناء التجربة، حيث أصبحت أكثر نشاطاً واستعداداً للمشاركة، وأكثر حماساً للحصة التي باتت تنتظرها بفارغ الصبر، الأمر الذي أذهلني، فسألتها عن سبب هذا التغيير، فأجابتني أنها تتلقى مساعدة زميلاتها لمعرفة الإجابات. لقد سررت جداً من هذا الموقف، واعتبرته إنجازاً لصالح تجربتنا. كما لاحظت أمرا آخر في هذه التجربة يتمثل في أن تصرفات الأطفال داخل الحصة هو مؤشر فعال لما يشعرون به؛ لأنهم لا يعبرون بصدق من خلال الكلام معهم! فعندما قمت بإجراء مقابلات مع بعض الطالبات بناءً على اقتراح فريق البحث لاحظت التناقض بين إجاباتهن وبين ما يبدينه من ردود فعل طبيعية أثناء الحصة، وبالرغم من إظهار بعض الطالبات المتفوقات لرضاهن عن العمل التعاوني في بداية التجربة إلا أنني كنت متأكدة أن شعورهن هو العكس تماماً مما دفعني للتفكير بنوع آخر من المهمات التي تناسب مستواهن. وأستطيع القول هنا إن الحالة النفسية للطالبات داخل غرفة الصف تؤثر بشكل كبير على تحصيلهن؛ فعندما يشعرن براحة تامة وانسجام، وأن لكل واحدة منهن دورا كبيرا فإن حماسهن يزداد، ودافعيتهن نحو التعلم ترتفع، وفي نظري فإن هناك قيما يجب غرسها داخل الأطفال لتساعدهم على تحسين تحصيلهم كالتعاون، وحب التعلم، والثقة بالنفس، وذلك من خلال سلوكيات نقوم بها داخل غرفة الصف كالتعزيز مثلاً.

وبعد انتهاء هذه التجربة أستطيع القول إنني وضعت نفسي على بداية الطريق لتطوير نفسي مهنياً، فقد اكتسبت خبرة غنية في كيفية معالجة ما يواجهني من مشاكل داخل غرفة الصف، وأنه كلما زادت خبرتي كانت رؤيتي للأمور أعم وأشمل، ولكي أطلب من الطالبات مستوى تحصيل معيناً يجب علي أولاً أن أوفر لهن الجو الملائم داخل الصف، والطريقة المناسبة لذلك، وأن أول خطوة لمواجهة مشكلة ما هي تحديدها. ولا شك أن كل إنسان مفكر يتأمل في سلوكه، إن هذه التجربة كونت لدي مفهوماً أكثر نضجاً حول التأمل والتفكير الناقد، فقد كنت في السابق أتأمل في كثير من أموري في الحياة، أما الآن فأصبحت أكثر إدراكاً لأهمية هذا التأمل، وتحولت هذه العملية من مجرد عملية تلقائية لاواعية إلى عمل مدروس وأكثر وعياً، كما أصبحت أفكر بطريقة أكثر نضجاً تعتمد على المنهج العلمي، وليس على مجرد التخبط عبر التجربة والخطأ.

إن البحث الإجرائي منحني شعوراً بالمشاركة والقوة، حيث اعتُبرت كباحثة، تتعاون مع عدة أطراف على نفس القدر من المسؤولية، أفيد وأستفيد، وأكتسب مهارات تعليمية متنوعة، وأخيراً أستطيع أن أقول الآن إنني أشعر بأنني مستعدة لمواجهة المشاكل التربوية التي لا تنتهي بطريقة أكثر فعالية ونضجاً.

المعلمة: ديما عكاوي
مدرسة بنات بدو – وكالة
إشراف لينا جابر ورائد شماسنه